

# الموسيقا في الأدب العربي

عرض ونقد وتحليل

- ٣ -

لهذا تارة عبر اللطيف الطهراني

العصفور: — لقد كان حديثك الغابر عن موسيقا اللفظ وموسيقا الأسلوب — ماسرني وبسط أمامي صورة من جمال القول وأسراره؛ وأحب أن تقفني على شيء من آراء علمائكم القدامى في اللفظ والمعنى؛ لأعرف إلى أي حد عاجلوا هذا الموضوع، وأقدر مبلغ نظرهم إليه، وعنايتهم به.

أنا — علماء الأدب في النظر إلى اللفظ والمعنى فريقان: فريق معتدل، جعل فضيلة الكلام الجيد قسمة عادلة بين اللفظ والمعنى، كقدامة بن جعفر، وأبي هلال العسكري، وابن رشيق، وغيرهم؛ وفريق متطرف، وهورجلان، شيخ الكتاب الجاحظ الذي جعل الحسن كله وقفا على اللفظ، وغض النظر عن المعنى فقال « والمعاني مطروحة في وسط الطريق يعرفها العربي والعجمي، والحضري والبدوي » ومن عرف ثروة الجاحظ اللغوية، وسلطانه على الألفاظ وحفله بها، وبراعته في الترادف، وأذنه الموسيقية في تعرف الألفاظ وتخيرها لها — أدرك سر انخيازه إلى جانب اللفظ ودفاعه عنه؛ والإمام العالم عبد القاهر الجرجاني الذي مال إلى جانب المعنى، ونصب نفسه زعيم معارضة للجاحظ، وكأنه حين رآه يدع كل حسن لللفظ — مال هو إلى المعنى، ونسب إليه كل حسن، ليقرع رأيا برأى، ويصدع حجة بحجة؛ وبهذا وقع في التطرف كما وقع الجاحظ.

ونسلمك بعض آرائه في اللفظ واستخفافه به ، وفي المعنى وعطفه عليه ؛  
وسترى من ذلك عجبا ؛ قال « فقد اتضح إذن اتضاحا لا يدع للشك بجالا —  
أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كلم مفردة ،  
وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظ لمعنى الجملة التي  
تليها ، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ ، وما يشهد لذلك ، أنك ترى  
الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في  
موضع آخر . . . إلى أن قال : ومن أعجب ذلك لفظة الشيء ، فإنك تراها مقبولة  
حسنة في موضع ، وضعيفة مستكرهة في موضع آخر ، وإن أردت أن تعرف  
ذلك ، فانظر إلى قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي .

ومن مالى عينيه من شيء غيره إذا راح نحو الجرة البيض كالدمى  
وإلى قول أبي حية :

إذا ماتقاضى المرء يوم وليلة تقاضاه شيء لا يمل التقاضيا  
فإنك تعرف حسننها ومكانها من القبول ؛ ثم انظر إليها في بيت المتنبي .  
لو الفلك الدوار أبغضت سعيه لعرقه شيء عن الدوران  
فإنك تراها تقل وتضؤل بحسب نبلها وحسنها فيما تقدم « وعندي أن  
لفظة شيء في بيت المتنبي أجمل وأروع منها في بيت عمر بن أبي ربيعة ، فإن  
تنكيرها في بيت المتنبي زادها لطفا وخفة ؛ وإضافتها إلى كلمة غير في بيت  
ابن أبي ربيعة جعلتها سمجة فاترة — على أنى أقول . . . إن الكلمة لا تقبح في  
موضع وتحسن في آخر لذاتها ؛ وإنما ذلك يتبع النسيج والتأليف واختلاف  
الموجات الموسيقية ؛ فلا دليل للإمام في ذلك . وقد حمل الإمام على أنصار  
اللفظ ونال منهم تلويحا وتصريحا ؛ وكرر رأيه في اللفظ في صور مختلفة ، في  
ثنايا كتابه دلائل الإعجاز ، وأغرق في سوق الأدلة ماشاء ، فمن ذلك قوله  
« واعلم أن ما ترى أنه لا بد منه عن ترتيب الألفاظ وتواليها على النظم

الخاص — ليس هو الذي طلبته بالفكر، ولكنه شيء يقع بسبب الأول،  
(يريد المعنى) ضرورة؛ من حيث أن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني،  
فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في  
النفس، وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق « وقوله » وإنك  
إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك، لم تحتج إلى أن تستأنف فكرا في  
ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدوم للمعاني وتابعة لها ولا حقة  
بها، وأن العلم بمواقع المعاني في النفس — علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها  
في النطق » .

وقوله « ثم إن العجب كل العجب ممن يجعل كل الفضيلة في شيء (يريد  
اللفظ) — هو إذا انفرد (لم يجب به فضل ألبته، ولم يدخل في اعتداد  
بحال، وذلك أنه لا يخفى على عاقل، أنه لا يكون بسهولة الألفاظ وسلامتها  
عما يشغل على اللسان - اعتداد، حتى يكون قد ألف منها كلام، ثم كان ذلك  
الكلام صحيحا في نظمه والغرض الذي أريد به » وقوله « وما رأينا  
عاقلا جعل القرآن فصيحاً أو بليغاً، ألا يكون في حروفه ما يشغل على اللسان،  
لأنه لو كان يصح ذلك، لكان يجب أن يكون السوقي الساقط من الكلام،  
والسفساف الرديء من الشعر - فصيحاً، إذا خفت حروفه »

هذه نظرة الإمام الجرجاني إلى اللفظ المفرد، من أنه لا اعتداد به من غير  
أن يسلك في نظم، وليس حسن الكلام بخفة ألفاظه على اللسان، وائتلاف  
حروفها وانسجامها، بل فضله وحسنه في نظمه نظاما يوافق أصول النحو،  
ويجري على نظامه المؤلف كما سنعرض له بعد .

ومن غريب أمر الإمام، أنه بعد أن أثار حربا شعواء على اللفظ في  
مواضع كثيرة من كتابه، يعود في وقفات يسيرة، فيسلم بفضله في إحساس

مكبوت تارة ، وقول صريح تارة أخرى ، فيقع في التناقض والاضطراب ،  
فاستمع إليه إذ يقول :

« وهل يقع في وهم - وإن جهد - أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير  
أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم ، بأكثر من أن تكون هذه  
مألوفة مستعملة ، وتلك غريبة وحشية ؟ أو أن تكون حروف هذه أخف  
وامتزاجها أحسن ، وما يكدا اللسان أبعد ؟ »

ويقول في صراحة ووضوح « واعلم أنا لاناأبى أن تكون مذاقة الحروف  
وسلامتها مما يشغل على اللسان داخلا فيما يوجب الفضيلة ، وأن تكون مما يؤكد  
أمر الإعجاز ، وإنما الذي ننكره ونفيل رأى من يذهب إليه - أن يجعله معجزا  
به وحده ، ويجعله الأصل والعمدة ، فيخرج إلى ما ذكرنا من الشناعات »

العصفور : حقا إن هذا لغريب . كيف يحمل من الإمام الجرجاني  
- طيب الله رآه - أن يسلك سبيلا ملتويا في الانتصار للمعنى بلا تحفظ ، كما سلك  
الجاحظ قبله مثل هذا السبيل في الانتصار للفظ ، ولست بموافقه على رأيه  
المجحف باللفظ ، فعندى أن الألفاظ - وهي مفردة - لها منزلتها وشرفها الكامن  
فيها أو سخفها ، وذلك بما يحتويه من ائتلاف في الحروف ، وانسجام موسيقى  
أو خلافهما ، والكلام إذا كان حسنا كانت ألفاظه المفردة حسنة ، فلا يعقل  
أن يكون الكل حسنا وأجزاؤه غير حسنة ، فيكون الحسن وصفا طارئا لكل  
منفيا عن أجزائه ، ونظم الكلام إذا كان حسنا ، زاد الألفاظ الجميلة روعة  
وبهاء ، وإذا كان غير محكم ، غص من حسناتها وشوء من جمالها ، وشيخ ذلك  
العقد من الدرر إذا نظمت حياته على صورة حسنة بارعة ، فقد استوى مثلا  
عاليا في البلاغة ، وإذا نظمته على صورة غير متقنة ، فقد قل جماله العام ، وبقي  
لحياته روعتها الجزئية من الإشراق والصفاء ، وشيء آخر ، وهو أن المعنى  
في ذهن الكاتب أو الشاعر ، يحمله إلى معرض الألفاظ ، ليبحث له عن ثوب

قد على مثاله ، وقد يجد للمعنى أو شبهه ثريين أو أكثر ؛ ولكن أحدهما من خزن ناعم ، والآخر من صوف خشن ، فهل يستويان قيمة وانسجاما ؟  
والعتق والكرم يقعان في الألفاظ كغيرها من الأشياء ، وبهذا تفرق ، ويكون للمعنى أكثر من لفظ ، فيجيا واحد ويموت غيره ؛ والمعاجم مملوءة بالألفاظ المهمة التي تخلفت وانفرد غيرها بالبقاء دونها ، واختيار الألفاظ الحية قد قضى به العرف المألوف ، ومهد له الذوق المسيطر ؛ ولهذا وثب مثل هذه الألفاظ إلى عالم الظهور والشهرة واستأثر بالذريع ، كالقطعة والجناء ، والواسع والسهل ، والقصير والسحاب ، والذئب والعجب والذكاء ، والبخيل والوئب والظلمة ، وخملت نظائرهما وهي على التوالى : العتارة والعجيرة ، والعذمير والتعداد ، والفبتر والناهور والنهر ، والهكر والحرمة والضرز ، والقهمزة والطر مساء .

وسر ذلك يتجلى فيما منحت الألفاظ الأولى من خفة حروف وانسجام موسيقى ، وما حرمتها الثانية من صفات الأولى ؛ ومن هنا تدهش لأقوال الإمام التي تلونها عليك ، ومنها قوله « فقد اتضح إذا اتضاحا لا يدع للشك مجالا - أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كلم مفردة » وقوله في بعض وصفه للفظ « لم يجب به فضل ألبته ، ولم يدخل في اعتداد بحال »

وأعرف من هذا في الغرابة قوله « وإذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك ، لم تحتج إلى أن تستأنف فكرا في ترتيب الألفاظ ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها » .

وليت الأمر كذلك . إذا لهان الأمر على الكتاب والشعراء ، واستراحوا عما يلاقون من عنت ونصب في صناعتهم من وراء ربط الألفاظ بالمعاني ، وطلب الملاءمة والمشاكلة بينها . ويكفي أن تترتب المعاني في نفسك فتتثال

عليك الألفاظ انثيالاً بلا جهد ولا عناء، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة، كما يقوم الإمام الجرجاني، وتلك أمنية كما نرجو أن تتحقق فكم يعاني أرباب البيان إذا عرضوا للمعاني التي تجول بأفئدتهم من حيرة وعناء في اختيار الألفاظ لها، حتى تراتبيهم كما أرادوا أو قريبة منه.

وقد يكون لقول الإمام لمعة من الصواب في الأمور العلاجية؛ كالأكل والشرب والمشي والقيود، والأمور المحسنة كالبيت والحديقة والبحر والجبل وذلك الضرب غناء لا قيمة له في عالم البيان، أما المعاني النفسية الكريمة العميقة وما يجول فيها من إحساس مبهم، ووجدان غامض — فذلك هو سر البيان وروح الأدب الخالدة، وأثمن ما ساعدت به الإنسانية من تراث؛ وهذا هو المجال الذي تتسابق فيه القوى العقلية، وتتباين الألسنة في تصويره وتقريبه من الأذهان؛ وهذا النوع هو الذي يجهد العقول ويشقها في تلمس الألفاظ التي تلائمها، وإن الكاتب أو الشاعر ليلاقى صوراً من هذا الصنف فيطاردها بميله، وينصب لها شرك قوله، ولا يزال يتنقل في مناح من القول، بعضها يعلو وبعضها يهبط، حتى يرزق عفواً أو يدرك قصداً — عبارة يقنع بها راضياً أو كارهاً، ولقد تغادر المعنى إلى غيره وفي النفس منه بقية لا يزال يمسها وتخفق بها جانحة لأنه لم يرزق الألفاظ التي تصيب الهدف.

فكيف يرى الإمام الجرجاني أن الألفاظ تترتب بلا فكر ولا تعب، إذا ترتب المعنى في النفس؟ الحق، أن هذا القول لم يرزق حظه من التوفيق. وقد يدور بخلد قارئ أن يقول ما بالك قد أثرت خصومة وصلت في غير مصال، والإمام الجرجاني لم ييخل على اللفظ ببعض ما يستحقه في نظرك؟ فقد اعترف له ببعض محاسنه فيما رويت من قوله وما لم تروه، وكان في هذا — لو أنصفت — ما يحملك عن العدول عن موقف المعارضة للإمام، أو تعديل رأيك فيما يراه للمعنى من حقوق ولا يرى مثله للفظ؛ ولقد كان

واجبا على النزول على إرادة ذلك القائل ؛ ومثلى - على ضعفه - حرى أن يرضى بالسلامة والعافية من معارضة الإمام الجليل ، يعسوب البلاغة وإمامها وفيصلها ، وناسج بردها ومهذب ذوقها ، وقيم صرحها ورافع لواثها ؛ والإمام فى عنق فضل التهذيب والتأديب ، فقد كان كتابه « دلائل الأعجاز » أول كتاب أدبى نهلت منه الفصاحة صافية ، ونفضت به عن عيني غشاوة الجهالة وحملت به عقدة من لسانى ، وهذبت به كثيرا من ذوقى بعد الفضل الأسمى لكتاب الله الكريم .

لولا أن مدح الإمام للفظ لمعة قليلة جدا لا تكاد تبين فى ثنايا ما أورده فى مدح المعنى ، وقد أطال ووكد وضال وجال فى ميدان المعنى . وندد باللفظ وأنصاره ، ونال منهم فى غير هوادة ، مما لا يدع لحسن رأيه فى اللفظ سيلا إلى القلوب ؛ ويرى الإمام فوق هذا أن كل مدح للفظ قد خصه به أنصاره - هو على الحقيقة مدح مقنع يراد به مدح المعنى ، فاستمع إليه حيث يقول « ولما أقروا هذا فى نفوسهم حملوا كلام العلماء فى كل مانسبوا فيه الفضيلة إلى اللفظ على ظاهره ؛ وأبوا أن ينظروا فى الأوصاف التى أتبعوها نسبتهم الفضيلة إلى اللفظ مثل قولهم : لفظ متمكن غير قلق ولا ناب به موضعه إلى سائر ما ذكرناه قبل ، فعملوا أنهم لم يوجبوا للفظ ما أوجبوه من الفضيلة ، وهم يغنون نطق اللسان وأجراس الحروف ، ولكن جعلوا كالمواضعة فيما بينهم أن يقولوا اللفظ ، وهم يريدون الصورة التى تحدث فى المعنى والخاصة التى حدثت فيه » .

ويقول « كقولهم « لفظ متمكن » يريدون أنه بموافقة معناه لمعنى ما يليه . كالأشياء الحاصل فى مكان صالح يطمئن فيه » ولفظ قلق ناب « يريدون أنه من أجل معناه غير موافق لما يليه كالحاصل فى مكان لا يصلح له ، فهو لا يستطيع الطمأنينة فيه إلى سائر ما يحىء صفة فى صفة اللفظ ، مما يعلم أنه مستعار له من معناه ، وأنهم نخلوه إياه بسبب مضمونه ومؤداه » .

العصفور — بارك الله في صديقي الكريم ، فقد جلا على صوراً جميلة من الحقائق ، وأرضاني بحسن أدبه ومعرفته أقدار الرجال ، فجزاه الله عن العلم وأدب النفس خيراً ، وإني لأرجو أن تتم رأى الإمام في نظم الكلام بعد أن وقفتني على رأيه في اللفظ المفرد ، ولك مني جزيل الشكر والثناء على حسن ما قدمت لي في يومنا هذا من خير وفير .

أنا — للإمام الجرجاني في نظم الكلام رأى غريب أيضاً يشبه رأيه في اللفظ المفرد ، فهو يرى أن الكلام الحسن ما جرى نظمته على أصول النحو وقوانينه فحسب ، وإليك رأيه . قال :

« واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت ، فلا تزيغ عنها وقال « هذا هو السبيل ، فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً وخطؤه إن كان خطأً إلى النظم ، ويدخل تحت هذا الاسم — ألا وهو معنى من معاني النحو ، قد أصيب به موضعه ووضع في حقه ، أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه . واستعمل في غير ما ينبغي له ، فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم أو فساد ، أو وصف بمنزلة وفضل فيه — إلا وأنت تجد رجوع تلك الصحة وذلك الفساد ، وتلك المزية وذلك النقل — إلى معاني النحو وأحكامه . »

وهذا الرأي من زعيم البلاغة مثير للدهشة ، فإن أسرار البيان لا تقوم على دعائم النحو ، ولا تتحقق بالجرى على أصوله وقوانينه ، من إقامة الفاعل وبيان المفعول ، وذكر المتعلق وترتيب الثمرة بالفاء ، وبيان الحال وذكر الصفة ونحو ذلك ، مما هو بسبيل النحو ، ولو كان الأمر كذلك لكان أئمة النحو العالمين بأسراره كالخليل وسيبويه ، والقراء والكسائي والأخفش — هم الذين أخذوا بزمام الكتابة والشعر ، وخلفوا وراءهم عبد الحميد وابن المقفع ، وعمر

ابن مسعدة ، وأحمد بن يوسف ، والجاحظ والصابي ، والصاحب بن عباد وابن العميد ، إن السر في بلاغة الكلام وروعته لا يرجع إلى النحو الذي يعد وسيلة أدبية لتقويم اللسان وصحة الكلام ، بل يرجع إلى ما هو أسمى من النحو منزلة ، يرجع إلى الذوق المصنفي المذهب ، والفطرة السليمة النقية الخصبية ، والذخيرة العربية المتنوعة التي يتمرس بها الكاتب أو الشاعر طوال حياته ، فتصقل لسانه على غرارها ، وتهب له مثل ما فيها من جمال وعذوبة ، وهذا أمر لا ينازع فيه أديب قاسى هذه الصناعة وعرف أسرارها ، ولعل رجال النحو العارفين بأصوله أقل الناس بيانا ، وبيانهم له صيغته الخاصة من التكلف ، وأثر صناعتهم ومصطلحاتها مما لا تطرب له الأذن ولا تشهد له النفس — ولو كان الأمر كما قال الإمام لكان قول القائل الذي يطالب الدعاء لأمه المريضة وهو « صين وأعين من دعا لامرأة مقسنة عليه ، قد منيت بأكل هذا الطرموق الخبيث ، أن يمن الله عليها بالاطرغشاس والابرغشاس » — من النظم الحسن ، لأنه جرى على أصول النحو وقوانينه ، وما أظن الأستاذ الإمام يرضى ذلك وهو إمام البلاغة والذوق .

ويؤيدنا في رأينا العالم النفسى اللبق ابن خلدون ، ويرفض أن تكون قوانين النحو هي المرجع لحسن النظم ، ونورد قوله هنا لإقناع من خامر شك في صحة ما ذهب إليه الإمام الجرجاني — قال في أن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية « والسبب في ذلك أن صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة ، فهو علم بكيفية لا نفس كيفية ، فليست نفس الملكة ، وإنما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علما ولا يحكمها عملا . . . . . وهكذا العلم بقوانين الإعراب مع هذه الملكة في نفسها ، فإن العلم بقوانين الإعراب ، إنما هو علم بكيفية العمل ، ولذلك نجد كثيرا من جهابذة النحاة ، والمهرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين ، إذا سئل في كتابة

سطين إلى أخيه أو ذى مودته ، أو شكوى ظلامه أو قصد من قصوده — أخطأ فيها عن الصواب ، وأكثر من اللحن ، ولم يجد تأليف الكلام لذلك ، والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربى ؛ وكذا نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور ، وهو لا يحسن تمييز الفاعل من المفعول ، ولا المفعول من المجرور ، ولا شيئا من قوانين الصناعة العربية ؛ فن هذا تعلم أن تلك الملكة هى غير صناعة العربية ، وأنها مستغنية عنها بالجملة » ويقول أيضا « وهذه الملكة كما تقدم إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع ، والتفطن لخواص تراكيبه ، وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية فى ذلك التى استنبطها أهل صناعة اللسان ، فإن هذه القوانين إنما تفيد علما بذلك اللسان ، ولا تفيد حصول الملكة بالفعل فى محلها » .

وهذه شهادة ابن خلدون ، فى بيان رجال العلوم ، قال « ولهذا كان الفقهاء وأهل العلوم كلهم قاصرين فى البلاغة ، وما ذلك إلا لما يسبق إلى محفوظهم ويمتلئ به من القوانين العلمية ، والعبارات الفقهية الخارجة عن أسلوب البلاغة ، والنازلة عن الطبقة ، لأن العبارات عن القوانين والعلوم ، لاحظ لها فى البلاغة ، فإذا سبق ذلك المحفوظ إلى الفكر ، وكثر وتلونت به النفس ، جاءت الملكة الناشئة عنه فى غاية القصور ، وانحرفت عبارته عن أساليب العرب فى كلامهم ، وهكذا نجد شعر النحهاء والنحاة والمتكلمين والنظار وغيرهم ممن لم يمتلئ من حفظ النقى من بحر كلام العرب » . وأرانى قد بلغت الغاية من إيفاء الموضوع حقه ، ولم يبق بعد ذلك ريبة فى أن قول الإمام الجرجانى فى النظم قد خالف الحقيقة وجانى الصواب إلى حد بعيد ، وأعجب ما فى الأمر أن يصدر هذا القول عنه وهو هو فى الفضل والعلم ، وإذا كان ابن خلدون العالم الناقد قد خالفه فى النظم وهو الكل المؤلف من أجزاء هى إلا لفاظ ، فما أحراه أن يخالفه فى رأيه فى اللفظ المفرد أيضا ، وينذهب مذهب الجاحظ فى اللفظ ، ويجعل المعانى تابعة

للألفاظ ، بعكس ما قال الإمام ، وقد أطال في الاستدلال وإقامة الحجة ، حتى بلغ الغاية في مهارة وحذق ، ويسرني أن أسوق إليك قوله في ذلك ، فهو أبرع وأوفى من رأى الجاحظ ، قال :

« اعلم أن صناعة الكلام نظماً ونثراً إنما هي في الألفاظ لا في المعاني ، وإنما المعاني تتبع لها وهي أصل ، فالصانع الذي يحاول ملكة الكلام في النظم والنثر إنما يحاولها في الألفاظ بحفظ أمثالها من كلام العرب ، ليكثر استعماله وجريه على لسانه ، حتى تستقر له الملكة في لسان مضر ، ويتخلص من العجمة التي ربي عليها في جيله ، ويفرض نفسه مثل وليد نشأ في جيل العرب ، ويلقن لغتهم كما يلقنها الصبي حتى يصير كأنه واحد منهم في لسانهم . وذلك أننا قدمنا أن للسان ملكة من الملكات في النطق ، يحاول تحصينها بتكرارها على اللسان حتى تحصل ، والذي في اللسان والنطق إنما هو الألفاظ ، وأما المعاني فهي في الضمائر ، وأيضاً فالمعاني موجودة عند كل واحد ، وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى ، فلا يحتاج إلى صناعة ، وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه ، وهو بمثابة القوالب للمعاني ، فكما أن الأواني التي يخرق بها الماء من البحر ، منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف ، والماء واحد في نفسه ، وتختلف الجودة في الأواني المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء . - كذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه ، باعتبار تطبيقه على المقاصد ، والمعاني واحدة في نفسها ، وإنما الجاهل بتأليف الكلام وأساليبه على مقتضى ملكة اللسان ، إذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يحسن ، ثابته المقعد الذي يريد النهوض ولا يستطيعه ، لفقدان القدرة عليه ، والله يعلمكم ما لم تكتفوا تعلمون » ومن هنا ترى يا صديقي العصفور ، أن العالم ابن خلدون ، قد خالف الإمام الجرجاني وقلب رأيه رأساً على عقب ، وابن خلدون أيضاً رجل كلف باللفظ

يعنى بموسيقيته كثيرا، وإن لم يبلغ منزلة الجاحظ في صدق أذنه الموسيقية، وحسن مرانها على اختيار الألفاظ وترتيبها، وأنا بلا ريب يسرنى أن أكون معتدلا، فأرى الفضيحة مشتركة بين اللفظ والمعنى، فإذا شرف اللفظ وصفا وانسجمت موسيقاه، وواتاه المعنى البارع، وحسن سبك العبارة، فاطردت موسيقيتها على أكمل وجوها، فقد استويا كلاما بالغاحد الروعة والبهاء، وباختلاف الشعراء والكتاب في ذلك قوة وضعفا — تختلف أقدارهم ومنازلهم العصفور: — حسب الصديق الكريم ما قد سرنى به اليوم من حديث ممتع، وما أتخفى به من نقد وتحقيق لنواح كنت أمر بها في أدبكم الإنسانى، فيشتبه على الرأى فيها، فأخرج منها كما جثتها بلا فصل ولا نمحيص للحق منها، فجزاك الله عنى خير الجزاء، وأدامك للبحث الحصب نصيرا، وللخلق السرى ظهيرا، وإنى لشاكر لله جل شأنه — جمع الشمل وطى صفحة الفراق.

وقد يجمع الله الشيتين بعدما يظنان كل الظن ألا تلاقيا  
ثم انتفض انتفاضته المعروفة، ومضى فى الجو صعدا، وهو يغرد تغريدا  
أعاد إلى نفسى الذكريات القديمة، التى طالما جمعتنا على أتم صفاء، وغمرنى  
بسرور طربت له كل الطرب ؟

عبد اللطيف المخرنبي